به، بل ابذل جهدك في تبليغ ما أرسلت به. ﴿وجاهدهم﴾ بالقرآن ﴿جهاداً كبيراً﴾ أي: لا تبق من مجهودك في نصر الحق وقمع الباطل، إلا بذلته، ولو رأيت منهم من التكذيب والجراءة ما رأيت، فابذل جهدك، واستفرغ وسعك، ولا تيأس من هدايتهم، ولا تترك إبلاغهم لأهوائهم.

﴿٥٣﴾ ﴿وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً﴾ أي: وهو وحده الذي مرج البحرين يلتقيان، البحر العذب، وهي الأنهار السارحة على وجه الأرض، والبحر الملح، وجعل منفعة كل واحد منهما مصلحة للعباد، ﴿وجعل بينهما برزخاً﴾ أي: حاجزاً يحجز من اختلاط أحدهما بالآخر، فتذهب المنفعة المقصودة منهما ﴿وحجراً محجوراً﴾ أي: حاجزاً حصيناً.

﴿٥٤﴾ ﴿وهو الذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً وكان ربك قديراً﴾ أي: وهو الله وحده لا شريك له، الذي خلق الآدمي، من ماء مهين، ثم نشر منه ذرية كثيرة، وجعلهم أنساباً وأصهاراً، متفرقين ومجتمعين، والمادة كلها من ذلك الماء المهين، فهذا يدل على كمال اقتداره، لقوله: ﴿وكان ربك قديراً﴾ ويدل على أن عبادته هي الحق، وعبادة غيره باطلة، لقوله:

﴿٥٥﴾ ﴿ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم وكان الكافر على ربه ظهيراً﴾ أي: يعبدون أصناماً وأمواتاً، لا تضر ولا تنفع، ويجعلونها أنداداً لمالك النفع والضر والعطاء والمنع، مع أن الواجب عليهم، أن يكونوا مقتدين بإرشادات ربهم، ذابين عن دينه، ولكنهم عكسوا القضية.

﴿وكان الكافر على ربه ظهيراً﴾ فالباطل الذي هو الأوثان والأنداد، أعداء لله، فالكافر عاونها وظاهرها على ربها، وصار عدواً لربه، مبارزاً له في العداوة والحرب، هذا، وهو الذي خلقه ورزقه، وأنعم عليه بالنعم الظاهرة والباطنة، وليس يخرج عن ملكه وسلطانه وقبضته، والله لم يقطع عنه إحسانه وبره، وهو ـ بجهله ـ مستمر على هذه المعاداة والمبارزة.

﴿٥٦ ـ ٦٠﴾ ﴿وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً * قل ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً * وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيراً * الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل به خبيراً * وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفوراً﴾ يخبر تعالى: أنه ما أرسل رسوله محمداً ﷺ، مسيطراً على الخلق، ولا جعله ملكاً، ولا عنده خزائن الأشياء، وإنما أرسله ﴿مبشراً﴾ يبشر من أطاع الله، بالثواب العاجل والآجل ﴿ونذيراً﴾ ينذر من عصى الله، بالعقاب العاجل والآجل، وذلك مستلزم لتبيين ما به البشارة، وما تحصل به النذارة، من الأوامر والنواهي، وإنك ـ يا محمد ـ لا تسألهم على إبلاغهم القرآن والهدى أجراً، حتى يمنعهم ذلك من اتباعك، ويتكلفون من الغرامة. ﴿إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً﴾ أي: إلا من شاء، أن ينفق نفقة في مرضاة ربه وسبيله، فهذا وإن رغبتكم فيه، فلست أجبركم عليه، وليس أيضاً أجراً لي عليكم، وإنما هو راجع لمصلحتكم، وسلوككم للسبيل الموصلة إلى ربكم، ثم أمره أن يتوكل عليه ويستعين به، فقال: ﴿وتوكل على الحي﴾ الذي له الحياة الكاملة المطلقة ﴿الذي لا يموت وسبح بحمده﴾ أي: اعبده وتوكل عليه في الأمور المتعلقة بك والمتعلقة بالخلق. ﴿وكفى به بذنوب عباده خبيراً﴾ يعلمها، ويجازي عليها، فأنت ليس عليك من هداهم شيء، وليس عليك حفظ أعمالهم، وإنما ذلك كله، بيد الله ﴿الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى﴾ بعد ذلك ﴿على العرش﴾ الذي هو سقف المخلوقات، وأعلاها، وأوسعها، وأجلها. ﴿الرحمن﴾ استوى على عرشه، الذي وسع السماوات والأرض باسمه الرحمن، الذي وسعت رحمته كل شيء فاستوى على أوسع المخلوقات، بأوسع الصفات. فأثبت بهذه الآية، خلقه للمخلوقات، واطلاعه على ظاهرهم وباطنهم، وعلوه فوق العرش، ومبايته إياهم.

﴿فاسأل به خبيراً﴾ يعني بذلك نفسه الكريمة، فهو الذي يعلم أوصافه وعظمته وجلاله، وقد أخبركم بذلك، وأبان لكم من عظمته، ما تسعدون به من معرفته، فعرفه العارفون، وخضعوا لجلاله، واستكبر عن عبادته الكافرون، واستنكفوا عن ذلك، ولهذا قال: ﴿وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن﴾ أي: وحده، الذي أنعم عليكم بسائر النعم، ودفع عنكم جميع النقم. ﴿قالوا﴾ جحداً وكفراً: ﴿وما الرحمن﴾ بزعمهم الفاسد، أنهم لا يعرفون الرحمن، وجعلوا من جملة قوادحهم في الرسول، أن قالوا: ينهانا عن اتخاذ آلهة مع الله، وهو يدعو معه إلهاً آخر، يقول: «يا رحمن» ونحو ذلك، كما قال تعالى: ﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى﴾ فأسماؤه تعالى كثيرة، لكثرة أوصافه، وتعدد كماله،

فكل واحد منها، دل على صفة كمال.

﴿أنسجد لما تأمرنا﴾ أي: لمجرد أمرك إيانا. وهذا مبني منهم على التكذيب بالرسول، واستكبارهم عن طاعته، ﴿وزادهم﴾ دعوتهم إلى السجود للرحمن ﴿نفوراً﴾ هرباً من الحق إلى الباطل، وزيادة كفر وشقاء.

﴿٦١ ـ ٦٢﴾ ﴿تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً * وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً﴾ كرر تعالى في هذه السورة الكريمة قوله: ﴿تبارك﴾ ثلاث مرات، لأن معناها كما تقدم، أنها تدل على عظمة الباري، وكثرة أوصافه، وكثرة خيراته وإحسانه. وهذه السورة، فيها من الاستدلال على عظمته، وسعة سلطانه، ونفوذ مشيئته، وعموم علمه وقدرته، وإحاطة ملكه في الأحكام الأمرية والأحكام الجزائية وكمال حكمته. وفيها، ما يدل على سعة رحمته، وواسع جوده، وكثرة خيراته، الدينية والدنيوية، ما هو مقتض لتكرار هذا الوصف الحسن، فقال: ﴿تبارك الذي جعل في السماء بروجاً﴾ وهي: النجوم عمومها، أو منازل الشمس والقمر التي تنزلها منزلة منزلة، وهي بمنزلة البروج والقلاع للمدن في حفظها، كذلك النجوم بمنزلة البروج المجعولة للحراسة، فإنها رجوم للشياطين.

﴿وجعل فيه سراجاً﴾ فيه النور والحرارة، وهو: الشمس. ﴿وقمراً منيراً﴾ فيه النور، لا الحرارة، وهذا من أدلة عظمته، وكثرة إحسانه، فإن ما فيها من الخلق الباهر، والتدبير المنتظم، والجمال العظيم، دال على عظمة خالقها في أوصافه كلها، وما فيها من المصالح للخلق والمنافع، دليل على كثرة خيراته.

﴿وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة﴾ أي: يذهب أحدهما، فيخلفه الآخر، هكذا أبداً، لا يجتمعان، ولا يرتفعان، ﴿لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً﴾ أي: لمن أراد أن يتذكر بهما ويعتبر، ويستدل بهما على كثير من المطالب الإلهية، ويشكر الله على ذلك، ولمن أراد أن يذكر الله ويشكره، وله وردٌ من الليل أو النهار، فمن فاته وِرْدُه من أحدهما، أدركه في الآخر، وأيضاً فإن القلوب تتقلب وتنتقل في ساعات الليل والنهار، فيحدث لها النشاط والكسل، والذكر والغفلة، والقبض والبسط، والإقبال والإعراض، فجعل الله الليل والنهار، يتوالى على العباد ويتكرران، ليحدث لهم الذكر والنشاط، والشكر لله في وقت آخر، ولأن أوراد العبادات، تتكرر بتكرر الليل والنهار، فكلما تكررت الأوقات، أحدث للعبد همة غير همته التي كسلت في الوقت المتقدم، فزاد في تذكرها وشكرها، فوظائف الطاعات بمنزلة سقْي الإيمان الذي يمده، فلولا ذلك لذوى غرس الإيمان ويبس. فلله أتم حمد وأكمله على ذلك.

ثم ذكر من جملة كثرة خيره، منته على عباده الصالحين، وتوفيقهم للأعمال الصالحات، التي أكسبتهم المنازل العاليات، في غرف الجنات فقال:

﴿٦٣ ـ ٧٧﴾ ﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً * والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً * والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إنّ عذابها كان غراماً * إنها ساءت مستقراً ومقاماً﴾ إلى آخر السورة الكريمة.

العبودية لله نوعان: عبودية لربوبيته، فهذه يشترك فيها سائر الخلق، مسلمهم وكافرهم، برهم وفاجرهم، فكلهم عبيد الله مربوبون مدبرون ﴿إن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً﴾ وعبودية لألوهيته، وعبادته، ورحمته، وهي عبودية أنبيائه، وأوليائه، وهي المراد هنا، ولهذا أضافها إلى اسمه «الرحمن» إشارة إلى أنهم إنما وصلوا إلى هذه الحال بسبب رحمته، فذكر أن صفاتهم أكمل الصفات، ونعوتهم أفضل النعوت، فوصفهم بأنهم ﴿يمشون على الأرض هوناً﴾ أي: ساكنين متواضعين لله وللخلق، فهذا وصف لهم بالوقار، والسكينة، والتواضع لله ولعباده. ﴿وإذا خاطبهم الجاهلون﴾ أي: خطاب جهل، بدليل إضافة الفعل، وإسناده لهذا الوصف، ﴿قالوا سلاماً﴾ أي: خاطبوهم خطاباً يسلمون فيه من الإثم، ويسلمون من مقابلة الجاهل بجهله. وهذا مدح لهم، بالحلم الكثير، ومقابلة المسيء بالإحسان، والعفو عن الجاهل، ورزانة العقل الذي أوصلهم إلى هذه الحال.

﴿والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً﴾ أي: يكثرون من صلاة الليل، مخلصين فيها لربهم، متذللين له، كما قال تعالى: ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون * فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون﴾.

﴿والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم﴾ أي: ادفعه عنا، بالعصمة من أسبابه، ومغفرة ما وقع منا، مما هو مقتض للعذاب. ﴿إن عذابها كان غراماً﴾ أي: ملازماً لأهلها، بمنزلة ملازمة الغريم لغريمه.

﴿إنها ساءت مستقراً ومقاماً﴾ وهذا منهم، على وجه التضرع لربهم، وبيان شدة حاجتهم إليه، وأنهم ليس في طاقتهم احتمال هذا العذاب، وليتذكروا مِنّة الله عليهم، فإن صرف الشدة، بحسب شدتها وفظاعتها، يعظم وقْعُها ويشتد الفرح بصرفها.

﴿والذين إذا أنفقوا﴾ النفقات الواجبة والمستحبة ﴿لم يسرفوا﴾ بأن يزيدوا على الحد، فيدخلوا في قسم التبذير، وإهمال الحقوق الواجبة، ﴿ولم يقتروا﴾ فيدخلوا في باب البخل والشح ﴿وكان﴾ إنفاقهم ﴿بين ذلك﴾ بين الإسراف والتقتير ﴿قواماً﴾ يبذلون في الواجبات من الزكوات، والكفارات، والنفقات الواجبة، وفيما ينبغي، على الوجه الذي ينبغي، من

غير ضرر ولا ضرار، وهذا من عدلهم واقتصادهم.

﴿والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر﴾ بل يعبدونه وحده، مخلصين له الدين، حنفاء، مقبلين عليه، معرضين عما سواه.

﴿ولا يقتلون النفس التي حرم الله﴾ وهي نفس المسلم، والكافر المعاهَد، ﴿إلا بالحق﴾ كقتل النفس بالنفس، وقتل الزاني المحصن، والكافر الذي يحل قتله. ﴿ولا يزنون﴾ بل يحفظون فروجهم ﴿إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم﴾.

﴿ومن يفعل ذلك﴾ أي: الشرك بالله، أو قتل النفس التي حرم الله بغير حق، أو الزنا، فسوف ﴿يلق أثاماً﴾ ثم فسره بقوله: ﴿يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه﴾ أي: في العذاب ﴿مهاناً﴾ فالوعيد بالخلود، لمن فعلها كلها، ثابت لا شك فيه، وكذا لمن أشرك بالله، وكذلك الوعيد بالعذاب الشديد، على كل واحد من هذه الثلاثة، لكونها إما شرك، وإما من أكبر الكبائر.

وأما خلود القاتل والزاني في العذاب، فإنه لا يتناوله الخلود، لأنه قد دلت النصوص القرآنية والسنة النبوية، أن جميع المؤمنين سيخرجون من النار، ولا يخلد فيها مؤمن، ولو فعل من المعاصي ما فعل، ونص تعالى على هذه الثلاثة، لأنها أكبر الكبائر: فالشرك فيه فساد الأديان، والقتل فيه فساد الأبدان، والزنا فيه فساد الأعراض.

﴿إلا من تاب﴾ عن هذه المعاصي وغيرها، بأن أقلع عنها في الحال، وندم على ما مضى له من فعلها، وعزم عزماً جازماً أن لا يعود، ﴿وآمن﴾ بالله إيماناً صحيحاً، يقتضي ترك المعاصي وفعل الطاعات، ﴿وعمل عملاً صالحاً﴾ مما أمر به الشارع، إذا قصد به وجه الله.

﴿فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات﴾ أي: تتبدل أفعالهم وأقوالهم، التي كانت مستعدة لعمل السيئات، تتبدل حسنات، فيتبدل شركهم إيماناً، ومعصيتهم طاعة، وتتبدل نفس السيئات التي عملوها، ثم أحدثوا عن كل ذنب منها توبة وإنابة وطاعة تبدل حسنات، كما هو ظاهر الآية.

وورد في ذلك حديث الرجل الذي حاسبه الله ببعض ذنوبه، فعَدَّدها عليه، ثم أبدل مكان كل سيئة حسنة فقال: «يا رب، إن لي سيئات لا أراها هاهنا» والله أعلم.

﴿وكان الله غفوراً﴾ لمن تاب، يغفر الذنوب العظيمة ﴿رحيماً﴾ بعباده حيث دعاهم إلى التوبة بعد مبارزته بالعظائم، ثم وفقهم لها، ثم قبلها منهم.

﴿ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً﴾ أي: فليَعْلم أن توبته في غاية الكمال، لأنها رجوع إلى الطريق الموصل إلى الله، الذي هو عين سعادة العبد وفلاحه، فليُخلِص فيها، وليُخَلِّصها من شوائب الأغراض الفاسدة، فالمقصود من هذا، الحث على تكميل التوبة، وايقاعها على أفضل الوجوه وأجلها، ليقدم على من تاب إليه فيوفيه[1] أجره، بحسب كمالها.

﴿والذين لا يشهدون الزور﴾ أي: لا يحضرون الزور، أي: القول والفعل المحرم، فيجتنبون جميع المجالس، المشتملة على الأقوال المحرمة، أو الأفعال المحرمة، كالخوض في آيات الله، والجدال الباطل، والغيبة، والنميمة، والسب، والقذف، والاستهزاء، والغناء المحرم، وشرب الخمر، وفرش الحرير، والصور، ونحو ذلك، وإذا كانوا لا يشهدون الزور، فمن باب أولى وأحرى، أن لا يقولوه ويفعلوه.

وشهادة الزور داخلة في قول الزور، تدخل في هذه الآية بالأولوية، ﴿وإذا مروا باللغو﴾ وهو الكلام الذي لا خير فيه، ولا فيه فائدة دينية ولا دنيوية، ككلام السفهاء ونحوهم ﴿مروا كراماً﴾ أي: نزهوا أنفسهم وأكرموها عن الخوض فيه، ورأوا الخوض فيها، وإن كان لا إثم فيه، فإنه سفه ونقص للإنسانية والمروءة، فربؤوا بأنفسهم عنه.

وفي قوله: ﴿وإذا مروا باللغو﴾ إشارة إلى أنهم لا يقصدون حضوره ولا سماعه، ولكن عند المصادفة التي من غير قصد، يكرمون أنفسهم عنه.

﴿والذين إذا ذكروا بآيات ربهم﴾ التي أمرهم باستماعها والاهتداء بها، ﴿لم يخروا عليها صماً وعمياناً﴾ أي: لم يقابلوها بالإعراض عنها، والصمم عن سماعها، وصرف النظر والقلوب عنها، كما يفعله من لم يؤمن بها ولم يصدق، وإنما حالهم فيها وعند سماعها، كما قال تعالى: ﴿إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجداً وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون﴾ يقابلونها بالقبول والافتقار إليها، والانقياد والتسليم لها، وتجد عندهم آذاناً سامعة، وقلوباً واعية، فيزداد بها إيمانهم، ويتم بها إيقانهم، وتحدث لهم نشاطاً، ويفرحون بها سروراً واغتباطاً.

﴿والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا﴾ أي: قرناتنا من أصحاب وأقران وزوجات، ﴿وذرياتنا قرة أعين﴾ أي: تقَرُّ بهم أعيننا.

وإذا استقرأنا حالهم وصفاتهم، عرفنا من هممهم وعلو مرتبتهم، أنهم لا تقر أعينهم حتى يروهم مطيعين لربهم، عاملين عاملين، وهذا كما أنه دعاء لأزواجهم وذرياتهم في صلاحهم، فإنه دعاء لأنفسهم، لأن نفعه يعود عليهم، ولهذا جعلوا ذلك هبة لهم، فقالوا: ﴿هب لنا﴾ بل دعاؤهم يعود إلى نفع عموم المسلمين، لأن بصلاح من ذكر، يكون سبباً لصلاح كثير ممن يتعلق بهم، وينتفع بهم.

---

(١) في ب: فيوفيهم.

﴿واجعلنا للمتقين إماماً﴾ أي: أوصلنا يا ربنا إلى هذه الدرجة العالية، درجة الصديقين والكمل من عباد الله الصالحين، وهي درجة الإمامة في الدين، وأن يكونوا قدوة للمتقين في أقوالهم وأفعالهم، يقتدى بأفعالهم، ويُطمأنُ لأقوالهم، ويسير أهل الخير خلفهم، فيهدون ويهتدون.

ومن المعلوم، أن الدعاء ببلوغ شيء، دعاء بما لا يتم إلا به، وهذه الدرجة ـ درجة الإمامة في الدين ـ لا تتم إلا بالصبر واليقين، كما قال تعالى: ﴿وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون﴾. فهذا الدعاء، يستلزم من الأعمال، والصبر على طاعة الله وعن معصيته وأقداره المؤلمة، ومن العلم التام، الذي يوصل صاحبه إلى درجة اليقين، خيراً كثيراً، وعطاء جزيلاً، وأن يكونوا في أعلى ما يمكن من درجات الخلق بعد الرسل. ولهذا، لما كانت هممهم ومطالبهم عالية، كان الجزاء من جنس العمل، فجازاهم بالمنازل العاليات فقال: ﴿أولئك يجزون الغرفة بما صبروا﴾ أي: المنازل الرفيعة، والمساكن الأنيقة الجامعة لكل ما يشتهى وتلذه الأعين، وذلك بسبب صبرهم، نالوا ما نالوا، كما قال تعالى: ﴿والملائكة يدخلون عليهم من كل باب * سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار﴾ ولهذا قال هنا: ﴿ويلقون فيها تحية وسلاماً﴾ من ربهم، ومن ملائكته الكرام، ومن بعض على بعض، ويسلمون من جميع المنغصات والمكدرات.

والحاصل: أن الله وصفهم بالوقار والسكينة، والتواضع له ولعباده، وحسن الأدب، والحلم، وسعة الخلق، والعفو عن الجاهلين، والإعراض عنهم، ومقابلة إساءتهم بالإحسان، وقيام الليل، والإخلاص فيه، والخوف من النار، والتضرع لربهم أن ينجيهم منها، وإخراج الواجب والمستحب في النفقات، والاقتصاد في ذلك ـ وإذا كانوا مقتصدين في الإنفاق، الذي جرت العادة بالتفريط فيه أو الإفراط، فاقتصادهم وتوسطهم في غيره من باب أولى ـ والسلامة من كبائر الذنوب والاتصاف بالإخلاص لله في عبادته، والعفة عن الدماء والأعراض، والتوبة عند صدور شيء من ذلك، وأنهم لا يحضرون مجالس المنكر والفسوق القولية والفعلية، ولا يفعلونها بأنفسهم، وأنهم يتنزهون من اللغو والأفعال الردية التي لا خير فيها، وذلك يستلزم مروءتهم وإنسانيتهم وكمالهم، ورفعة أنفسهم عن كل خسيس، قولي وفعلي، وأنهم يقابلون آيات الله بالقبول لها، والتفهم لمعانيها، والعمل بها، والاجتهاد في تنفيذ أحكامها، وأنهم يدعون الله تعالى بأكمل الدعاء، في الدعاء الذي ينتفعون به، وينتفع به من يتعلق بهم، وينتفع به المسلمون، من صلاح أزواجهم وذريتهم، ومن لوازم ذلك، سعيهم في تعليمهم ووعظهم ونصحهم، لأن من حرص على شيء ودعا الله فيه، لا بد أن يكون متسبباً فيه، وأنهم دعوا الله ببلوغ أعلى الدرجات الممكنة لهم، وهي درجة الإمامة والصديقية.

فلله، ما أعلى هذه الصفات، وأرفع هذه الهمم، وأجل هذه المطالب، وأزكى تلك النفوس، وأطهر تيك القلوب، وأصفى هؤلاء الصفوة، وأتقى هؤلاء السادة!!

ولله، فضل الله عليهم ونعمته، ورحمته التي جللتهم، ولطفه الذي أوصلهم إلى هذه المنازل.

ولله، منة الله على عباده، أن بين لهم أوصافهم، ونعت لهم هيئاتهم، وبيّن لهم همهم، وأوضح لهم أجورهم، ليشتاقوا إلى الاتصاف بأوصافهم، ويبذلوا جهدهم في ذلك، ويسألوا الذي مَنَّ عليهم وأكرمهم، الذي فضله في كل زمان ومكان، وفي كل وقت وأوان، أن يهديهم كما هداهم، ويتولاهم بتربيته الخاصة كما تولاهم.

فاللهم لك الحمد. وإليك المشتكى، وأنت المستعان، وبك المستغاث، ولا حول ولا قوة إلا بك، لا نملك لأنفسنا نفعاً ولا ضراً، ولا نقدر على مثقال ذرة من الخير إن لم تيسر ذلك لنا، فإنا ضعفاء عاجزون من كل وجه.

نشهد أنك إن وكلتنا إلى أنفسنا طرفة عين، وكلتنا إلى ضعف وعجز وخطيئة، فلا نثق يا ربنا إلا برحمتك التي بها خلقتنا ورزقتنا، وأنعمت علينا بما أنعمت من النعم الظاهرة والباطنة، وصرفت عنا من النقم، فارحمنا رحمة تغنينا بها عن رحمة من سواك، فلا خاب من سألك ورجاك.

ولما كان الله تعالى، قد أضاف هؤلاء العباد إلى رحمته، واختصهم بعبوديته لشرفهم وفضلهم، ربما توهم متوهم، أنه وأيضاً غيرهم، فلم لا يدخل في العبودية؟

فأخبر تعالى، أنه لا يبالي ولا يعبأ بغير هؤلاء، وأنه لولا دعاؤكم إياه دعاء العبادة ودعاء المسألة، ما عبأ بكم ولا أحبكم فقال: ﴿قل ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم فقد كذبتم فسوف يكون لزاماً﴾ أي: عذاباً يلزمكم، لزوم الغريم لغريمه، وسوف يحكم الله بينكم وبين عباده المؤمنين.

تم تفسير سورة الفرقان،
فلله الحمد والثناء والشكر أبداً

قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾
٣٨

تفسير سورة الشعراء
وهي مكية عند الجمهور

﴿١ ـ ٩﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم طسم * تلك آيات الكتاب المبين * لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين * إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين * وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين * فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزؤون * أولم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم * إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾ يشير الباري تعالى إشارة تدل على التعظيم لآيات الكتاب المبين البيّن الواضح، الدال على جميع المطالب الإلهية، والمقاصد الشرعية، بحيث لا يبقى عند الناظر فيه شك ولا شبهة فيما أخبر به أو حكم به، لوضوحه ودلالته على أشرف المعاني، وارتباط الأحكام بحكمها، وتعليقها بمناسبها، فكان رسول الله ﷺ ينذر به الناس، ويهدي به الصراط المستقيم، فيهتدي بذلك عباد الله المتقون، ويعرض عنه من كتب عليه الشقاء، فكان يحزن حزناً شديداً على عدم إيمانهم، حرصاً منه على الخير، ونصحاً لهم.

فلهذا قال تعالى عنه: ﴿لعلك باخع نفسك﴾ أي: مهلكها وشاقّ عليها، ﴿ألاّ يكونوا مؤمنين﴾ أي: فلا تفعل، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات، فإن الهداية بيد الله، وقد أديت ما عليك من التبليغ، وليس فوق هذا القرآن المبين آية حتى ننزلها ليؤمنوا [بها]، فإنه كاف شاف، لمن يريد الهداية، ولهذا قال: ﴿إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية﴾ أي: من آيات الاقتراح، ﴿فظلت أعناقهم﴾ أي: أعناق المكذبين ﴿لها خاضعين﴾ ولكن لا حاجة إلى ذلك، ولا مصلحة فيه، فإنه إذ ذاك الوقت، يكون الإيمان غير نافع، وإنما الإيمان النافع، الإيمان بالغيب، كما قال تعالى: ﴿هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها﴾ الآية.

﴿وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث﴾ يأمرهم وينهاهم، ويذكرهم ما ينفعهم ويضرهم. ﴿إلا كانوا عنه معرضين﴾ بقلوبهم وأبدانهم، هذا إعراضهم عن الذكر المحدث، الذي جرت العادة، أنه يكون موقعه أبلغ من غيره، فكيف بإعراضهم عن غيره، وهذا، لأنهم لا خير فيهم، ولا تنجع فيهم المواعظ، ولهذا قال: ﴿فقد كذبوا﴾ أي: بالحق، وصار التكذيب لهم سجية، لا تتغير ولا تتبدل، ﴿فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزؤون﴾ أي: سيقع بهم العذاب، ويحل بهم ما كذبوا به، فإنهم قد حقت عليهم كلمة العذاب. قال الله منبهاً على التفكر الذي ينفع صاحبه: ﴿أولم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم﴾ من جميع أصناف النباتات، حسنة المنظر، كريمة في نفعها، ﴿إن في ذلك لآية﴾ على إحياء الله الموتى بعد موتهم، كما أحيا الأرض بعد موتها ﴿وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ كما قال تعالى: ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾.

﴿وإن ربك لهو العزيز﴾ الذي قد قهر كل مخلوق، ودان له العالم العلوي والسفلي، ﴿الرحيم﴾ الذي وسعت رحمته كل شيء، ووصل جوده إلى كل حي، العزيز الذي أهلك الأشقياء بأنواع العقوبات، الرحيم بالسعداء، حيث أنجاهم من كل شر وبلاء.

﴿١٠ ـ ٦٨﴾ ﴿وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين﴾ إلى آخر القصة قوله: ﴿إنَّ في ذلك لآيةً وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾ أعاد الباري تعالى قصة موسى وثناها في القرآن ما لم يثن غيرها، لكونها مشتملة على حكم عظيمة وعبر، وفيها نبأه مع الظالمين والمؤمنين، وهو صاحب الشريعة الكبرى، وصاحب التوراة أفضل الكتب بعد القرآن، فقال: واذكر حالة موسى الفاضلة، وقت نداء الله إياه، حين كلمه ونبأه وأرسله، فقال:

﴿أن ائت القوم الظالمين﴾ الذين تكبروا في الأرض، وعلوا على أهلها، وادعى كبيرهم الربوبية، ﴿قوم فرعون ألا يتقون﴾ أي: قل لهم، بلين قول، ولطف عبارة ﴿ألا تتقون﴾ الله الذي خلقكم ورزقكم، فتتركون ما أنتم عليه من الكفر.

فقال موسى عليه السلام، معتذراً من ربه، ومبيناً لعذره، وسائلاً له المعونة على هذا الحمل الثقيل: ﴿قال رب إني أخاف أن يكذبون * ويضيق صدري ولا ينطلق لساني﴾.

فقال: ﴿رب اشرح لي صدري * ويسر لي أمري * واحلل عقدة من لساني * يفقهوا قولي * واجعل لي وزيراً من أهلي * هارون أخي﴾ ﴿فأرسل إلى هارون﴾ فأجاب الله طلبته، ونبأ أخاه هارون كما نبأه ﴿فأرسله معي ردءاً﴾ أي: معاوناً لي على أمري أن يصدقوني.

﴿ولهم علي ذنب﴾ أي: في قتل القبطي ﴿فأخاف أن يقتلون﴾.

﴿قال كلا﴾ أي: لا يتمكنون من قتلك، فإنا سنجعل لكما سلطاناً، فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون. ولهذا لم يتمكن فرعون من قتل موسى، مع منابذته له غاية المنابذة، وتسفيه رأيه، وتضليله وقومه، ﴿فاذهبا بآياتنا﴾ الدالة على

صدقكما، وصحة ما جئتما به، ﴿إنا معكم مستمعون﴾ أحفظكما وأكلؤكما، ﴿فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين﴾ أي: أرسلنا إليك، لتؤمن به وبنا، وتنقاد لعبادته، وتذعن لتوحيده، ﴿أن أرسل معنا بني إسرائيل﴾ فكف عنهم عذابك، وارفع عنهم يدك ليعبدوا ربهم ويقيموا أمر دينهم.

فلما جاءا فرعون وقالا له ما قال الله لهما، لم يؤمن فرعون ولم يلن، وجعل يعارض موسى، فـ ﴿قال ألم نربك فينا وليداً﴾ أي: ألم ننعم عليك، ونقم بتربيتك، منذ كنت وليداً في مهدك، ولم تزل كذلك.

﴿ولبثت فينا من عمرك سنين * وفعلت فعلتك التي فعلت﴾ وهي قتل موسى للقبطي، حين استغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه ﴿فوكزه موسى فقضى عليه﴾ الآية.

﴿وأنت من الكافرين﴾ أي: وأنت إذ ذاك طريقك طريقنا، وسبيلك سبيلنا، في الكفر، فأقر على نفسه بالكفر من حيث لا يدري.

فقال موسى: ﴿فعلتها إذاً وأنا من الضالين﴾ أي: عن غير كفر، وإنما كان عن ضلال وسفه، فاستغفرت ربي فغفر لي، ﴿ففررت منكم لما خفتكم﴾ حين تراجعتم بقتلي، فهربت إلى مدين، ومكثت سنين، ثم جئتكم. ﴿فوهب لي ربي حكماً وجعلني من المرسلين﴾.

فالحاصل أن اعتراض فرعون على موسى، اعتراض جاهل أو متجاهل، فإنه جعل المانع من كونه رسولاً، أن جرى منه القتل، فبين له موسى، أن قتله على وجه الضلال والخطأ، الذي لم يقصد نفس القتل، وأن فضل الله تعالى غير ممنوع منه أحد، فلم منعتم ما منحني الله، من الحكم والرسالة؟ بقي عليك يا فرعون إدلاؤك بقولك: ﴿ألم نربك فينا وليداً﴾ وعند التحقيق، يتبين أن لا منة لك فيها، ولهذا قال موسى: ﴿وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل﴾ أي: تدلي عليّ بهذه المنة لأنك سخرت بني إسرائيل، وجعلتهم لك بمنزلة العبيد، وأنا قد أسلمتني من تعبيدك وتسخيرك، وجعلتها علي نعمة، فعند التصور، يتبين أن الحقيقة، أنك ظلمت هذا الشعب الفاضل، وعذبتهم، وسخرتهم بأعمالك، وأنا قد سلمني الله من أذاك، مع وصول أذاك لقومي، فما هذه المنة التي تبت بها وتدلي بها؟.

﴿قال فرعون وما رب العالمين﴾ وهذا إنكار منه لربه، ظلماً وعلواً، مع تيقن صحة ما دعاه إليه موسى، قال: ﴿رب السماوات والأرض وما بينهما﴾ أي: الذي خلق العالم العلوي والسفلي، ودبره بأنواع التدبير، ورباه بأنواع التربية. ومن جملة ذلك، أنتم أيها المخاطبون، فكيف تنكرون خالق المخلوقات، وفاطر الأرض والسماوات، ﴿إن كنتم موقنين﴾ فقال فرعون متجرهماً، ومعجباً لقومه: ﴿ألا تستمعون﴾ ما يقول هذا الرجل، فقال موسى:

﴿ربكم ورب آبائكم الأولين﴾ تعجبتم أم لا، استكبرتم أم أذعنتم. فقال فرعون معانداً للحق، قادحاً بمن جاء به: ﴿إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون﴾ حيث قال خلاف ما نحن عليه، وخالفنا فيما ذهبنا إليه، فالعقل عنده وأهل العقل، من زعموا أنهم لم يخلقوا، أو أن السماوات والأرض ما زالتا موجودتين من غير موجد، وأنهم بأنفسهم خلقوا من غير خالق، والعقل عنده، أن يعبد المخلوق الناقص من جميع الوجوه، والجنون عنده، أن يثبت الرب الخالق للعالم العلوي والسفلي، والمنعم بالنعم الظاهرة والباطنة، ويدعو إلى عبادته، وزين لقومه هذا القول، وكانوا سفهاء الأحلام، خفيفي العقول ﴿فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾ فقال موسى عليه السلام، مجيباً لإنكار فرعون وتعطيله لرب العالمين: ﴿رب المشرق والمغرب وما بينهما﴾ من سائر المخلوقات ﴿إن كنتم تعقلون﴾ فقد أديت لكم من البيان والتبيين، ما يفهمه كل من له أدنى مسكة من عقل، فما بالكم تتجاهلون فيما أخاطبكم به؟ وفيه إيماء وتنبيه إلى أن الذي رميتم به موسى من الجنون، أنه داؤكم فرميتم أزكى الخلق عقلاً، وأكملهم علماً، بالجنون، والحال أنكم أنتم المجانين، حيث ذهبت عقولكم لإنكار أظهر الموجودات، خالق الأرض والسماوات وما بينهما، فإذا جحدتموه، فأي: شيء تثبتون؟ وإذا جهلتموه، فأي: شيء تعلمون؟ وإذا لم تؤمنوا به وبآياته، فبأي: شيء - بعد الله وآياته - تؤمنون؟ تالله، إن المجانين الذين بمنزلة البهائم، أعقل منكم، وإن الأنعام السارحة، أهدى منكم.

فلما خنقت فرعون الحجة، وعجزت قدرته وبيانه عن المعارضة ﴿قال﴾ متوعداً لموسى بسلطانه ﴿لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين﴾ زعم - قبحه الله - أنه قد طمع في إضلال موسى، وأن لا يتخذ إلهاً غيره، وإلا فقد تقرر أنه هو ومن معه، على بصيرة من أمرهم.

فقال له موسى: ﴿أو لو جئتك بشيء مبين﴾ أي: آية ظاهرة جلية، على صحة ما جئت به، من خوارق العادات.

﴿قال فأت به إن كنت من الصادقين * فألقى عصاه فإذا هي

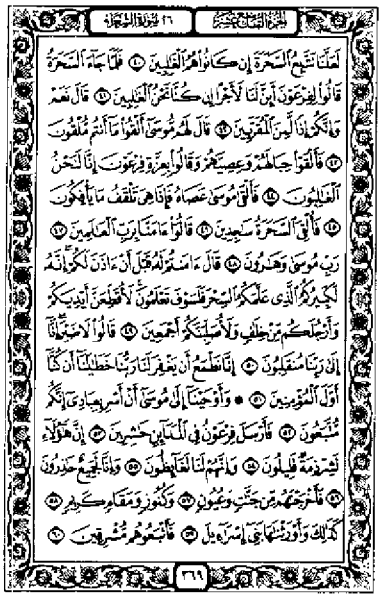

ثعبان﴾ أي: ذكر الحيات، ﴿مبين﴾ ظاهر لكل أحد، لا خيال ولا تشبيه.

﴿ونزع يده﴾ من جيبه ﴿فإذا هي بيضاء للناظرين﴾ أي: لها نور عظيم، لا نقص فيه لمن نظر إليها. ﴿قال﴾ فرعون ﴿للملأ حوله﴾ معارضاً للحق ومن جاء به: ﴿إن هذا لساحر عليم * يريد أن يخرجكم من أرضكم﴾ مؤيّداً عليهم، لعلمه بضعف عقولهم، أن هذا من جنس ما يأتي به السحرة، لأنه من المتقرر عندهم، أن السحرة يأتون من العجائب بما لا يقدر عليه الناس، وخوّفهم أن قصده بهذا السحر، التوصل إلى إخراجهم من وطنهم، ليجدوا ويجتهدوا في معاداة من يريد إجلاءهم عن أولادهم وديارهم، ﴿فماذا تأمرون﴾ أن نفعل به؟

﴿قالوا أرجه وأخاه﴾ أي: أخرهما ﴿وابعث في المدائن حاشرين﴾ جامعين للناس ﴿يأتوك﴾ أولئك الحاشرون ﴿بكل سحار عليم﴾ أي: ابعث في جميع مدنك، التي هي مقر العلم ومعدن السحر، من يجمع لك كل ساحر ماهر، عليم في سحره، فإن الساحر يُقابلُ بسحرٍ من جنس سحره.

وهذا من لطف الله أن يري العباد بطلان ما موه به فرعون الجاهل الضال المضل، أن ما جاء به موسى سحر، قيضهم أن جمعوا أهل المهارة بالسحر، لينعقد المجلس عن حضرة الخلق العظيم، فيظهر الحق على الباطل، ويقر أهل العلم وأهل الصناعة بصحة ما جاء به موسى، وأنه ليس بسحر، فعمل فرعون برأيهم، فأرسل في المدائن من يجمع السحرة، واجتهد في ذلك وجد.

﴿فجمع السحرة لميقات يوم معلوم﴾ قد واعدهم إياه موسى، وهو يوم الزينة، الذي يتفرغون فيه من أشغالهم.

﴿وقيل للناس هل أنتم مجتمعون﴾ أي: نودي بعموم الناس بالاجتماع في ذلك اليوم الموعود ﴿لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين﴾ أي: قالوا للناس: اجتمعوا لتنظروا غلبة السحرة لموسى، وأنهم ماهرون في صناعتهم، فتتبعهم ونعظمهم، ونعرف فضيلة علم السحر، فلو وفقوا للحق، لقالوا: لعلنا نتبع المحق منهم، ولنعرف الصواب، فلذلك ما أفاد فيهم ذلك، إلا قيام الحجة عليهم.

﴿فلما جاء السحرة﴾ ووصلوا لفرعون قالوا له: ﴿أإن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين﴾ لموسى؟ ﴿قال نعم﴾ لكم أجر وثواب ﴿وإنكم إذاً لمن المقربين﴾ عندي، وعندهم الأجر والقربة منه، ليزداد نشاطهم، ويأتوا بكل مقدورهم في معارضة ما جاء به موسى.

فلما اجتمعوا للموعد، هم وموسى، وأهل مصر، وعظهم موسى وذكرهم، وقال: ﴿ويلكم لا تفتروا على الله كذباً فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى﴾ فتنازعوا وتخاصموا، ثم شجعهم فرعون، وشجع بعضهم بعضاً.

﴿قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون﴾ أي: ألقوا كل ما في خواطركم إلقاءه، ولم يقيده بشيء دون شيء، لجزمه ببطلان ما جاؤوا به من معارضة الحق.

﴿فألقوا حبالهم وعصيهم﴾ فإذا هي حيات تسعى، وسحروا بذلك أعين الناس، ﴿وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون﴾ فاستعانوا بعزة عبدٍ ضعيفٍ، عاجز من كل وجه، إلا أنه قد تجبر، وحصل له صورة ملك وجنود، فغرتهم تلك الأبهة، ولم تنفذ بصائرهم إلى حقيقة الأمر، أو أن هذا قَسَمٌ منهم بعزة فرعون، والمقسم عليه أنهم غالبون.

﴿فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف﴾ تبتلع وتأخذ ﴿ما يأفكون﴾ فالتقمت جميع ما ألقوا من الحبال والعصي، لأنها إفك وكذب وزور، وذلك كله باطل، لا يقوم للحق ولا يقاومه.

فلما رأى السحرة هذه الآية العظيمة، تيقنوا ـ لعلمهم ـ أن هذا ليس بسحر، وإنما هو آية من آيات الله، ومعجزة تنبيء بصدق موسى، وصحة ما جاء به.

﴿فألقي السحرة ساجدين﴾ لربهم.

﴿قالوا آمنا برب العالمين * رب موسى وهارون﴾. وانقمع الباطل في ذلك المجمع، وأقر رؤساؤه ببطلانه، ووضح الحق وظهر، حتى رأى ذلك الناظرون بأبصارهم، ولكن أبى فرعون إلا عتواً وضلالاً، وتمادياً في غيه وعناداً، فقال للسحرة: ﴿آمنتم له قبل أن آذن لكم﴾ يتعجب، ويعجب قومه من جراءتهم عليه، وإقدامهم على الإيمان من غير إذنه ومؤامراته. ﴿إنه لكبيركم الذي علمكم السحر﴾ هذا، وهو الذي جمع السحرة وملأه، الذين أشاروا عليه بجمعهم من مدائنهم، وقد علموا أنهم ما اجتمعوا بموسى ولا رأوه قبل ذلك، وأنهم جاؤوا من السحر بما يحير الناظرين ويبهلهم، ومع ذلك، فراج عليهم هذا القول، الذي هم بأنفسهم وقفوا على بطلانه، فلا يستنكر على أهل هذه العقول، أن لا يؤمنوا بالحق الواضح والآيات الباهرة، لأنهم لو قال لهم فرعون عن أي: شيء كان، إنه على خلاف حقيقته، صدقوه.

ثم توعد السحرة فقال: ﴿لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف﴾ أي: اليد اليمنى والرجل اليسرى، كما يفعل بالمفسد في الأرض،

﴿ولأصلبنكم أجمعين﴾ لتختزوا، وتذلوا. فقال السحرة ـ حين وجدوا حلاوة الإيمان وذاقوا لذته ـ: ﴿لا ضير﴾ أي: لا نبالي بما توعدتنا به ﴿إنا إلى ربنا منقلبون * إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا﴾ من الكفر والسحر وغيرهما ﴿أن كنا أول المؤمنين﴾ بموسى، من هؤلاء الجنود، فثبتهم الله وصبَّرهم.

فيحتمل أن فرعون فعل بهم ما توعدهم به، لسلطانه واقتداره إذ ذاك، ويحتمل أن الله منعه منهم، ثم لم يزل فرعون وقومه مستمرين على كفرهم، يأتيهم موسى بالآيات البينات، وكلما جاءتهم آية، وبلغت منهم كل مبلغ، وعدوا موسى وعاهدوه، لئن كشف الله عنهم، ليؤمنن به، وليرسلن معه بني إسرائيل، فيكشفه الله، ثم ينكثون، فلما يئس موسى من إيمانهم، وحقت عليهم كلمة العذاب، وآن لبني إسرائيل أن ينجيهم من أسرهم، ويمكن لهم في الأرض، أوحى الله إلى موسى: ﴿أن أسر بعبادي﴾ أي: اخرج ببني إسرائيل أول الليل، ليتمادوا ويتمهلوا في ذهابهم. ﴿إنكم متبعون﴾ أي: سيتبعكم فرعون وجنوده.

ووقع كما أخبر، فإنهم لما أصبحوا، وإذا بنو إسرائيل قد سروا كلهم مع موسى.

﴿فأرسل فرعون في المدائن حاشرين﴾ يجمعون الناس، ليوقع ببني إسرائيل، ويقول مشجعاً لقومه: ﴿إن هؤلاء﴾ أي: بني إسرائيل ﴿لشرذمة قليلون * وإنهم لنا لغائظون﴾ ونريد أن ننفذ غيظنا في هؤلاء العبيد، الذين أبقُوا منا.

﴿وإنا لجميع حاذرون﴾ أي: الحذر على الجميع منهم، وهم أعداء للجميع، والمصلحة مشتركة، فخرج فرعون وجنوده في جيش عظيم، ونفير عام، لم يتخلف منهم سوى أهل الأعذار، الذين منعهم العجز.

قال الله تعالى: ﴿فأخرجناهم من جنات وعيون﴾ أي: بساتين مصر وجنانها الفائقة، وعيونها المتدفقة، وزروع قد ملأت أراضيهم، وعمرت بها حاضرتهم وبواديهم.

﴿ومقام كريم﴾ يعجب الناظرين، ويلهي المتأملين، تمتعوا به دهراً طويلاً، وقضوا بلذاته وشهواته عمراً مديداً، على الكفر والعناد، والتكبر على العباد والتيه العظيم.

﴿كذلك وأورثناها﴾ أي: هذه البساتين والعيون، والزروع، والمقام الكريم، ﴿بني إسرائيل﴾ الذين جعلوهم من قبل عبيدهم، وسخروا في أعمالهم الشاقة، فسبحان من يؤتي الملك من يشاء، وينزعه ممن يشاء، ويعز من يشاء بطاعته، ويذل من يشاء بمعصيته.

﴿فأتبعوهم مشرقين﴾ أي: اتبع قوم فرعون قوم موسى، وقت شروق الشمس، وساقوا خلفهم محثين، على غيظ وحنق قادرين.

﴿فلما تراءى الجمعان﴾ أي: رأى كل منهما صاحبه، ﴿قال أصحاب موسى﴾ شاكين لموسى وحزنين: ﴿إنا لمدركون﴾ ف ﴿قال﴾ موسى مثبتاً لهم، ومخبراً لهم بوعد ربه الصادق: ﴿كلا﴾ أي: ليس الأمر كما ذكرتم، أنكم مدركون، ﴿إن معي ربي سيهدين﴾ لما فيه نجاتي ونجاتكم، ﴿فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر﴾ فضربه ﴿فانفلق﴾ اثني عشر طريقاً ﴿فكان كل فرق كالطود﴾ أي: الجبل ﴿العظيم﴾ فدخله موسى وقومه.

﴿وأزلفنا ثم﴾ في ذلك المكان ﴿الآخرين﴾ أي: فرعون وقومه، قربناهم، وأدخلناهم في ذلك الطريق، الذي سلك منه موسى وقومه.

﴿وأنجينا موسى ومن معه أجمعين﴾ استكملوا خارجين، لم يتخلف منهم أحد.

﴿ثم أغرقنا الآخرين﴾ لم يتخلف منهم عن الغرق أحد، ﴿إن في ذلك لآية﴾ عظيمة على صدق ما جاء به موسى عليه السلام، وبطلان ما عليه فرعون وقومه، ﴿وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ مع هذه الآيات المقتضية للإيمان، لفساد قلوبكم، ﴿وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾ بعزته أهلك الكافرين المكذبين، وبرحمته نجى موسى ومن معه أجمعين.

﴿٦٩ ـ ١٠٤﴾ ﴿واتل عليهم نبأ إبراهيم * إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون﴾ إلى آخر هذه القصة ﴿وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾ أي: واتل يا محمد على الناس، نبأ إبراهيم الخليل، وخبره الجليل، في هذه الحالة بخصوصها، وإلا فله أنباء كثيرة، ولكن من أعجب أنبائه وأفضلها، هذا النبأ المتضمن لرسالته ودعوته قومه، ومحاجته إياهم، وإبطاله ما هم عليه، ولذلك قيده بالظرف، فقال: ﴿إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون * قالوا﴾ متبجحين بعبادتهم: ﴿نعبد أصناماً﴾ ننحتها ونعملها بأيدينا. ﴿فنظل لها عاكفين﴾ أي: مقيمين على عبادتها في كثير من أوقاتنا، فقال لهم إبراهيم، مبيناً لعدم استحقاقها للعبادة: ﴿هل يسمعونكم إذ تدعون﴾ فيستجيبون دعاءكم، ويفرجون كربكم، ويزيلون عنكم كل مكروه؟

﴿أو ينفعونكم أو يضرون﴾ فأقروا أن ذلك كله غير موجود فيها، فلا تسمع دعاء، ولا تنفع، ولا تضر، ولهذا لما كسرها وقال: ﴿بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون﴾ قالوا له: ﴿لقد علمت ما

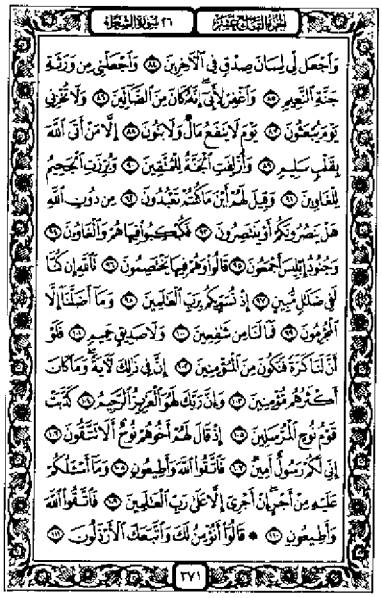

قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ
تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ
﴿١١٥﴾ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ
إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ
الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ
أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ
مُؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ
الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ
رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ
مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ
آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾
وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾
وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾
وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ
﴿١٣٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾

٣٧٢

هؤلاء ينطقون﴾ أي: هذا أمر متقرر من حالها، لا يقبل الإشكال والشك، فلجؤوا إلى تقليد آبائهم الضالين، فقالوا: ﴿بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون﴾ فتبعناهم على ذلك، وسلكنا سبيلهم، وحافظنا على عاداتهم، فقال لهم إبراهيم: أنتم وآباؤكم، كلكم خصوم في هذا الأمر، والكلام مع الجميع واحد.

﴿أفرأيتم ما كنتم تعبدون * أنتم وآباؤكم الأقدمون * فإنهم عدو لي﴾ فليضروني بأدنى شيء من الضرر، وليكيدوني فلا يقدرون.

﴿إلا رب العالمين * الذي خلقني فهو يهدين﴾ هو المنفرد بنعمة الخلق ونعمة الهداية، للمصالح الدينية والدنيوية، ثم خصص منها بعض الضروريات فقال: ﴿والذي هو يطعمني ويسقين * وإذا مرضت فهو يشفين * والذي يميتني ثم يحيين * والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين﴾

فهذا هو وحده المنفرد بذلك، فيجب أن يفرد بالعبادة والطاعة، وتترك هذه الأصنام، التي لا تخلق، ولا تهدي، ولا تمرض، ولا تشفي، ولا تطعم، ولا تسقي، ولا تميت، ولا تحيي، ولا تنفع عابديها بكشف الكروب، ولا مغفرة الذنوب.

فهذا دليل قاطع، وحجة باهرة، لا تقدرون أنتم وآباؤكم على معارضتها، فدل على اشتراككم في الضلال، وترككم طريق الهدى والرشد. قال الله تعالى: ﴿وحاجه قومه قال أتحاجوني في الله وقد هدانِ﴾ الآيات.

ثم دعا عليه السلام ربه فقال: ﴿رب هب لي حكماً﴾ أي: علماً كثيراً، أعرف به الأحكام، والحلال والحرام، وأحكم به بين الأنام، ﴿وألحقني بالصالحين﴾ من إخوانه الأنبياء والمرسلين.

﴿واجعل لي لسان صدق في الآخرين﴾ أي: اجعل لي ثناء صدق، مستمر إلى آخر الدهر. فاستجاب الله دعاءه، فوهب له من العلم والحكم، ما كان به من أفضل المرسلين، وألحقه بإخوانه المرسلين، وجعله محبوباً مقبولاً، معظماً مثنىً عليه، في جميع الملل، في كل الأوقات.

قال تعالى: ﴿وتركنا عليه في الآخرين * سلام على إبراهيم * إنا كذلك نجزي المحسنين * إنه من عبادنا المؤمنين﴾.

﴿واجعلني من ورثة جنة النعيم﴾ أي: من أهل الجنة، التي يورثهم الله إياها، فأجاب الله دعاءه، فرفع منزلته في جنات النعيم.

﴿واغفر لأبي إنه كان من الضالين﴾ وهذا الدعاء، بسبب الوعد الذي قال لأبيه: ﴿سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيا﴾ قال تعالى: ﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم﴾ ﴿ولا تخزني يوم يبعثون﴾ أي: بالتوبيخ على بعض الذنوب، والعقوبة عليها والفضيحة، بل أسعدني في ذلك اليوم الذي ﴿لا ينفع﴾ فيه ﴿مال ولا بنون * إلا من أتى الله بقلب سليم﴾ فهذا الذي ينفعه عندك، وهذا الذي ينجو به من العقاب، ويستحق جزيل الثواب.

والقلب السليم، معناه الذي سلم من الشرك والشك ومحبة الشر والإصرار على البدعة والذنوب، ويلزم من سلامته مما ذكر، اتصافه بأضدادها، من الإخلاص والعلم واليقين ومحبة الخير وتزيينه في قلبه، وأن تكون إرادته ومحبته تابعة لمحبة الله، وهواه تبعاً لما جاء عن الله، ثم ذكر من صفات ذلك اليوم العظيم، وما فيه من الثواب والعقاب فقال: ﴿وأزلفت الجنة﴾ أي: قربت ﴿للمتقين﴾ ربهم، الذين امتثلوا أوامره، واجتنبوا زواجره، واتقوا سخطه وعقابه.

﴿وبرزت الجحيم﴾ أي: برزت واستعدت بجميع ما فيها من العذاب، ﴿للغاوين﴾ الذين أوضعوا في معاصي الله، وتجرؤوا على محارمه، وكذبوا رسله، وردوا ما جاؤوهم به من الحق ﴿وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون * من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون﴾ بأنفسهم أي: فلم يكن من ذلك من شيء، وظهر كذبهم وخزيهم، ولاحت خسارتهم وفضيحتهم، وبان ندمهم، وضل سعيهم. ﴿فكبكبوا فيها﴾ أي: ألقوا في النار ﴿هم﴾ أي: ما كانوا يعبدون، ﴿والغاوون﴾ العابدون لها، ﴿وجنود إبليس أجمعون﴾ من الإنس والجن، الذين أزهم إلى المعاصي أزاً، وتسلط عليهم بشركهم وعدم إيمانهم، فصاروا من دعاته، والساعين في مرضاته، وهم ما بين داع لطاعته، ومجيب لهم، ومقلد لهم على شركهم.

﴿قالوا﴾ أي: جنود إبليس الغاوون، لأصنامهم وأوثانهم التي عبدوها: ﴿تالله إن كنا لفي ضلال مبين * إذ نسويكم برب العالمين﴾ في العبادة والمحبة، والخوف والرجاء، وندعوكم كما ندعوه، فتبين لهم حينئذ: ضلالهم، وأقروا بعدل الله في عقوبتهم، وأنها في محلها، وهم لم يسووهم برب العالمين، إلا في العبادة، لا في الخلق، بدليل قولهم: ﴿برب العالمين﴾ إنهم مقرون أن الله رب العالمين كلهم، الذين من جملتهم أصنامهم وأوثانهم.

﴿وما أضلنا﴾ عن طريق الهدى والرشد، ودعانا إلى طريق الغي

والفسق، ﴿إلا المجرمون﴾ وهم الأئمة الذين يدعون إلى النار، ﴿فما لنا﴾ حينئذ ﴿من شافعين﴾ يشفعون لنا، لينقذونا[1] من عذابه، ﴿ولا صديق حميم﴾ أي: قريب مصاف، ينفعنا بأدنى نفع، كما جرت العادة بذلك في الدنيا، فأيسوا من كل خير، وأبلسوا بما كسبوا، وتمنوا العودة إلى الدنيا ليعملوا صالحاً.

﴿فلو أن لنا كرة﴾ أي: رجعة إلى الدنيا، وإعادة إليها ﴿فنكون من المؤمنين﴾ لنسلم من العقاب، ونستحق الثواب، هيهات هيهات، قد حيل بينهم وبين ما يشتهون، وقد غلقت منهم الرهون.

﴿إن في ذلك﴾ الذي ذكرنا لكم ووصفنا ﴿لآية﴾ لكم ﴿وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ مع نزول الآيات.

﴿١٠٥ ـ ١٢٢﴾ ﴿كذبت قوم نوح المرسلين﴾ إلى آخر القصة. يذكر تعالى، تكذيب قوم نوح لرسولهم نوح، وما رد عليهم وردوا عليه، وعاقبة الجميع، فقال: ﴿كذبت قوم نوح المرسلين﴾ جميعهم، وجعل تكذيب نوح كتكذيب جميع المرسلين، لأنهم كلهم اتفقوا على دعوة واحدة، وأخبار واحدة، فتكذيب أحدهم، تكذيب بجميع ما جاؤوا به من الحق، كذبوه ﴿إذ قال لهم أخوهم﴾ في النسب ﴿نوح﴾ وإنما ابتعث الله الرسل من نسب من أرسل إليهم، لئلا يشمئزوا من الانقياد له، ولأنهم يعرفون حقيقته، فلا يحتاجون أن يبحثوا عنه، فقال لهم مخاطباً بألطف خطاب ـ كما هي طريقة الرسل، صلوات الله وسلامه عليهم ـ ﴿ألا تتقون﴾ الله تعالى، فتتركون ما أنتم مقيمون عليه من عبادة الأوثان، وتخلصون العبادة لله وحده، ﴿إني لكم رسول أمين﴾ فكونه رسولاً إليهم بالخصوص، يوجب لهم تلقي ما أرسل به إليهم، والإيمان به، وأن يشكروا الله تعالى على أن خصهم بهذا الرسول الكريم، وكونه أميناً، يقتضي أنه لا يتقول على الله، ولا يزيد في وحيه ولا ينقص، وهذا يوجب لهم التصديق بخبره والطاعة لأمره.

﴿فاتقوا الله وأطيعون﴾ فيما آمركم به وأنهاكم عنه، فإن هذا هو الذي يترتب على كونه رسولاً إليهم، أميناً، فلذلك رتبه بالفاء الدالة على السبب، فذكر السبب الموجب، ثم ذكر انتفاء المانع، فقال: ﴿وما أسألكم عليه من أجر﴾ فتتكلفون من المغرم الثقيل، ﴿إن أجري إلا على رب العالمين﴾ أرجو بذلك القرب منه، والثواب الجزيل، وأما أنتم فمنيتي، ومنتهى إرادتي منكم، النصح لكم وسلوككم الصراط المستقيم.

﴿فاتقوا الله وأطيعون﴾ كرر ذلك عليه السلام لتكريره دعوة قومه، وطول مكثه في ذلك، كما قال تعالى: ﴿فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً﴾ وقال: ﴿رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً * فلم يزدهم دعائي إلا فراراً﴾ الآيات. فقالوا رداً لدعوته، ومعارضة له بما ليس يصلح للمعارضة: ﴿أنؤمن لك واتبعك الأرذلون﴾ أي: كيف نتبعك ونحن لا نرى أتباعك إلا أسافل الناس وأراذلهم وسقطهم. بهذا يعرف تكبرهم عن الحق، وجهلهم بالحقائق، فإنهم لو كان قصدهم الحق، لقالوا ـ إن كان عندهم إشكال وشك في دعوته ـ بيِّنْ لنا صحة ما جئت به بالطرق الموصلة إلى ذلك، ولو تأملوا حق التأمل، لعلموا أن أتباعه، هم الأعلون، خيار الخلق، أهل العقول الرزينة، والأخلاق الفاضلة، وأن الأرذل، من سلب خاصية عقله، فاستحسن عبادة الأحجار، ورضي أن يسجد لها ويدعوها، وأبى الانقياد لدعوة الرسل الكمل. وبمجرد ما يتكلم أحد الخصمين في الكلام الباطل، يعرف فساد ما عنده، بقطع النظر عن صحة دعوى خصمه، فقوم نوح لما سمعنا عنهم، أنهم قالوا في ردهم دعوة نوح: ﴿أنؤمن لك واتبعك الأرذلون﴾ فبنوا على هذا الأصل، الذي كل أحد يعرف فساده رد دعوته ـ عرفنا أنهم ضالون مخطؤون، ولو لم نشاهد من آيات نوح ودعوته العظيمة، ما يفيد الجزم واليقين بصدقه وصحة ما جاء به.

فقال نوح عليه السلام: ﴿وما علمي بما كانوا يعملون * إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون﴾ أي: أعمالهم وحسابهم على الله، إنما عليَّ التبليغ، وأنتم دعوهم عنكم، إن كان ما جئتكم به الحق، فانقادوا له، وكُلٌّ له عمله.

﴿وما أنا بطارد المؤمنين﴾ كأنهم ـ قبحهم الله ـ طلبوا منه أن يطردهم عنه، تكبراً وتجبراً، ليؤمنوا، فقال: ﴿وما أنا بطارد المؤمنين﴾ فإنهم لا يستحقون الطرد والإهانة، وإنما يستحقون الإكرام القولي والفعلي، كما قال تعالى: ﴿وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة﴾.

﴿إن أنا إلا نذير مبين﴾ أي: ما أنا إلا منذر ومبلغ عن الله، ومجتهد في نصح العباد، وليس لي من الأمر شيء، إن الأمر إلا لله.

(١) في النسختين: لينقذنا.

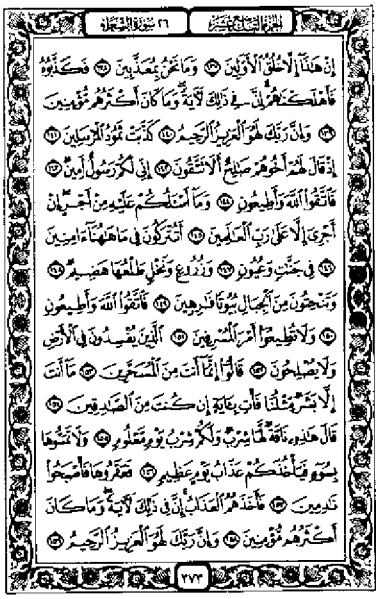

فاستمر نوح عليه الصلاة والسلام على دعوتهم ليلاً ونهاراً، سراً وجهاراً، فلم يزدادوا إلا نفوراً، و ﴿قالوا لئن لم تنته يا نوح﴾ من دعوتك إيانا، إلى الله وحده ﴿لتكونن من المرجومين﴾ أي: لنقتلك شر قتلة، بالرمي بالحجارة، كما يقتل الكلب. فتباً لهم، ما أقبح هذه المقابلة، يقابلون الناصح الأمين الذي هو أشفق عليهم من أنفسهم، بشر مقابلة. لا جرم لما انتهى ظلمهم، واشتد كفرهم، دعا عليهم نبيهم بدعوة أحاطت بهم، فقال: ﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا﴾ الآيات.

وهنا ﴿قال رب إن قومي كذبون * فافتح بيني وبينهم فتحا﴾ أي: أهلك الباغي منا، وهو يعلم أنهم البغاة الظلمة، ولهذا قال: ﴿ونجني ومن معي من المؤمنين﴾ ﴿فأنجيناه ومن معه في الفلك﴾ أي: السفينة ﴿المشحون﴾ من الخلق والحيوانات، ﴿ثم أغرقنا بعد﴾ أي: بعد نوح، ومن معه من المؤمنين ﴿الباقين﴾ أي: جميع قومه.

﴿إن في ذلك﴾ أي: نجاة نوح وأتباعه، وإهلاك من كذبه ﴿لآية﴾ دالة على صدق رسلنا، وصحة ما جاؤوا به، وبطلان ما عليه أعداؤهم المكذبون بهم.

﴿وإن ربك لهو العزيز﴾ الذي قهر بعزه أعداءه، فأغرقهم بالطوفان ﴿الرحيم﴾ بأوليائه، حيث نجى نوحاً ومن معه، من أهل الإيمان.

﴿١٢٣ ـ ١٤٠﴾ ﴿كذبت عاد المرسلين﴾ إلى آخر القصة. أي: كذبت القبيلة المسماة عاداً، رسولهم هوداً، وتكذيبهم له تكذيب لغيره، لاتفاق الدعوة.

﴿إذ قال لهم أخوهم﴾ في النسب ﴿هود﴾ بلطف وحسن خطاب: ﴿ألا تتقون﴾ الله، فتتركون الشرك وعبادة غيره، ﴿إني لكم رسول أمين﴾ أي: أرسلني الله إليكم، رحمة بكم، واعتناء بكم، وأنا أمين، تعرفون ذلك مني، رتب على ذلك قوله: ﴿فاتقوا الله وأطيعون﴾ أي: أدوا حق الله تعالى، وهو التقوى، وأدوا حقي، بطاعتي فيما آمركم به وأنهاكم عنه، فهذا موجب لأن تتبعوني وتطيعوني، وليس ثمَّ مانع يمنعكم من الإيمان، فلست أسألكم على تبليغي إياكم ونصحي لكم أجراً، حتى تستثقلوا ذلك المغرم. ﴿إن أجري إلا على رب العالمين﴾ الذي رباهم بنعمه، وأدرَّ عليهم فضله وكرمه، خصوصاً ما ربَّى به أولياءه وأنبياءه.

﴿أتبنون بكل ريع﴾ أي: مدخل بين الجبال ﴿آية﴾ أي: علامة ﴿تعبثون﴾ أي: تفعلون ذلك عبثاً لغير فائدة تعود بمصالح دينكم ودنياكم.

﴿وتتخذون مصانع﴾ أي: بركاً ومجابي للمياه ﴿لعلكم تخلدون﴾ والحال أنه لا سبيل إلى الخلود لأحد.

﴿وإذا بطشتم﴾ بالخلق ﴿بطشتم جبارين﴾ قتلاً وضرباً، وأخذ أموال. وكان الله تعالى قد أعطاهم قوة عظيمة، وكان الواجب عليهم أن يستعينوا بقوتهم على طاعة الله، ولكنهم فخروا واستكبروا، وقالوا: ﴿من أشد منا قوة﴾ واستعملوا قوتهم في معاصي الله، وفي العبث والسفه، فلذلك نهاهم نبيهم عن ذلك.

﴿فاتقوا الله﴾ واتركوا شرككم وبطركم ﴿وأطيعون﴾ حيث علمتم أني رسول الله إليكم، أمين ناصح، ﴿واتقوا الذي أمدكم﴾ أي: أعطاكم ﴿بما تعلمون﴾ أي: أمدكم بما لا يجهل ولا ينكر من الإنعام، ﴿أمدكم بأنعام﴾ من إبل وبقر وغنم ﴿وبنين﴾ أي: وكثرة نسل، كثَّر أموالكم، وكثَّر أولادكم، خصوصاً الذكور، أفضل القسمين.

هذا تذكيرهم بالنعم، ثم ذكرهم حلول عذاب الله، فقال: ﴿إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾ أي: إني ـ من شفقتي عليكم وبري بكم ـ أخاف أن يشزل بكم عذاب عظيم، إذا نزل لا يرد، إن استمريتم على كفركم وبغيكم.

فقالوا معاندين للحق مكذبين لنبيهم: ﴿سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين﴾ أي: الجميع على حد سواء، وهذا غاية العتو، فإن قوماً بلغت بهم الحال إلى أن صارت مواعظ الله، التي تذيب الجبال الصم الصلاب، وتتصدع لها أفئدة أولي الألباب، وجودها وعدمها ـ عندهم ـ على حد سواء، لقوم انتهى ظلمهم، واشتد شقاؤهم، وانقطع الرجاء من هدايتهم، ولهذا قالوا: ﴿إن هذا إلا خلق الأولين﴾ أي: هذه الأحوال والنعم، ونحو ذلك، عادة الأولين، تارة يستغنون، وتارة يفتقرون، وهذه أحوال الدهر، لا أن هذه محن ومنح من الله تعالى، وابتلاء لعباده ﴿وما نحن بمعذبين﴾ وهذا إنكار منهم للبعث، أو تنزل مع نبيهم وتهكم به، إننا على فرض أننا نبعث، فإننا كما أدرَّت علينا النعم في الدنيا، كذلك لا تزال مستمرة علينا إذا بعثنا.

﴿فكذبوه﴾ أي: صار التكذيب سجية لهم وخلقاً، لا يردعهم عنه رادع. ﴿فأهلكناهم﴾ ﴿بريح صرصر عاتية * سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية﴾.

﴿إن في ذلك لآية﴾ على صدق نبينا هود عليه السلام، وصحة ما جاء به، وبطلان ما عليه قومه، من الشرك والجبروت، ﴿وما كان أكثرهم

مؤمنين﴾ مع وجود الآيات المقتضية للإيمان.

﴿وإن ربك لهو العزيز﴾ الذي أهلك بقوته قوم هود، على قوتهم وبطشهم. ﴿الرحيم﴾ بنبيه هود، حيث نجاه ومن معه من المؤمنين.

﴿١٤١ ـ ١٥٩﴾ ﴿كذبت ثمود المرسلين﴾ إلى آخر القصة ﴿كذبت ثمود﴾ القبيلة المعروفة في مدائن الحجر ﴿المرسلين﴾ كذبوا صالحاً عليه السلام، الذي جاء بالتوحيد، الذي دعت إليه المرسلون، فكان تكذيبهم له تكذيباً للجميع.

﴿إذ قال لهم أخوهم صالح﴾ في النسب، برفق ولين: ﴿ألا تتقون﴾ الله تعالى، وتدعون الشرك والمعاصي ﴿إني لكم رسول﴾ من الله ربكم، أرسلني إليكم، لطفاً بكم ورحمة، فتلقوا رحمته بالقبول، وقابلوها بالإذعان، ﴿أمين﴾ تعرفون ذلك مني، وذلك يوجب عليكم أن تؤمنوا بي وبما جئت به.

﴿وما أسألكم عليه من أجر﴾ فتقولون: يمنعنا من اتباعك، أنك تريد أخذ أموالنا، ﴿إن أجري إلا على رب العالمين﴾ أي: لا أطلب الثواب إلا منه.

﴿أتتركون في ما هاهنا آمنين * في جنات وعيون * وزروع ونخل طلعها هضيم﴾ أي: نضيد كثير. أي: أتحسبون أنكم تتركون في هذه الخيرات والنعم سُدىً، تتنعمون وتمتعون كما تتمتع الأنعام وتتركون سدى، لا تؤمرون، ولا تنهون، وتستعينون بهذه النعم على معاصي الله، ﴿وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين﴾ أي: بلغت بكم الفراهة والحذق إلى أن اتخذتم بيوتاً من الجبال الصم الصلاب.

﴿فاتقوا الله وأطيعون * ولا تطيعوا أمر المسرفين﴾ الذين تجاوزوا الحد، ﴿الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون﴾ أي: الذين وصفهم ودأبهم الإفساد في الأرض، بعمل المعاصي، والدعوة إليها، إفساداً لا إصلاح فيه، وهذا أضر ما يكون، لأنه شر محض، وكأن أناساً عندهم مستعدون لمعارضة نبيهم، موضعون في الدعوة لسبيل الغي، فنهاهم صالح عن الاغترار بهم، ولعلهم الذين قال الله فيهم: ﴿وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون﴾ فلم يفد فيهم هذا النهي والوعظ شيئاً، فقالوا لصالح: ﴿إنما أنت من المسحرين﴾ أي: قد سحرت، فأنت تهذي بما لا معنى له.

﴿ما أنت إلا بشر مثلنا﴾ فأي: فضيلة فقتنا بها، حتى تدعونا إلى اتباعك؟ ﴿فأت بآية إن كنت من الصادقين﴾ هذا، مع أن مجرد اعتبار حالته وحالة ما دعا إليه، من أكبر الآيات البينات على صحة ما جاء به وصدقه، ولكنهم[1] من قسوتهم، سألوا آيات الاقتراح، التي في الغالب لا يفلح من طلبها، لكون طلبه مبنياً على التعنت لا على الاسترشاد.

فقال صالح: ﴿هذه ناقة﴾ تخرج من صخرة صماء ملساء ترونها وتشاهدونها بأجمعكم، ﴿لها شرب ولكم شرب يوم معلوم﴾ أي: تشرب ماء البئر يوماً، وأنتم تشربون لبنها، ثم تصدر عنكم اليوم الآخر، وتشربون أنتم ماء البئر.

﴿ولا تمسوها بسوء﴾ بعقر أو غيره ﴿فيأخذكم عذاب يوم عظيم﴾ فخرجت واستمرت عندهم بتلك الحال، فلم يؤمنوا، واستمروا على طغيانهم ﴿فعقروها فأصبحوا نادمين * فأخذهم العذاب﴾ وهي صيحة نزلت عليهم، فدمرتهم أجمعين، ﴿إن في ذلك لآية﴾ على صدق ما جاءت به رسلنا، وبطلان قول معارضيهم، ﴿وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾

﴿١٦٠ ـ ١٧٥﴾ ﴿كذبت قوم لوط المرسلين﴾ إلى آخر القصة قال لهم وقالوا كما قال من قبلهم، تشابهت قلوبهم في الكفر، فتشابهت أقوالهم، وكانوا ـ مع شركهم ـ يأتون فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من العالمين، يختارون نكاح الذكران، المستقذر الخبيث، ويرغبون عما خلق لهم من أزواجهم، لإسرافهم وعدوانهم، فلم يزل ينهاهم حتى ﴿قالوا﴾ له: ﴿لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين﴾ أي: من البلد، فلما رأى استمرارهم عليه ﴿قال إني لعملكم من القالين﴾ أي: المبغضين له الناهين عنه، المحذرين.

﴿رب نجني وأهلي مما يعملون﴾ من فعله وعقوبته، فاستجاب الله له، ﴿فنجيناه وأهله أجمعين * إلا عجوزاً في الغابرين﴾ أي: الباقين في العذاب، وهي امرأته.

﴿ثم دمرنا الآخرين * وأمطرنا عليهم مطراً﴾ أي: حجارة من سجيل ﴿فساء مطر المنذرين﴾ أهلكهم عن آخرهم.

﴿إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾

﴿١٧٦ ـ ١٩١﴾ ﴿كذب أصحاب الأيكة المرسلين﴾ أصحاب الأيكة: أي: البساتين الملتفة أشجارها[2]، وهم أصحاب مدين، فكذبوا نبيهم شعيباً، الذي جاء بما جاء به المرسلون، ﴿إذ قال لهم شعيب ألا تتقون﴾ الله تعالى، فتتركون ما يسخطه

(١) في النسختين: ولكنه.

(٢) كذا في ب، وفي أ: أشجاره.

مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ
إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكۡرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ
ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمۡ
عَنِ ٱلسَّمۡعِ لَمَعۡزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ
مِنَ ٱلۡمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخۡفِضۡ
جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنۡ عَصَوۡكَ فَقُلۡ
إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِي
يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ
ٱلۡعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ
كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ﴿٢٢٢﴾ يُلۡقُونَ ٱلسَّمۡعَ وَأَكۡثَرُهُمۡ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾
وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلۡغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّهُمۡ فِي كُلِّ وَادٖ
يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمۡ يَقُولُونَ مَا لَا يَفۡعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ
مَا ظُلِمُواْۗ وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾

سورة النمل

ويغضبه، من الكفر والمعاصي، ﴿إني لكم رسول أمين﴾ يترتب على ذلك، أن تتقوا الله وتطيعون، وكانوا ـ مع شركهم ـ يبخسون المكاييل والموازين، فلذلك قال لهم: ﴿أوفوا الكيل﴾ أي: أتموه وأكملوه ﴿ولا تكونوا من المخسرين﴾ الذين ينقصون الناس أموالهم ويسلبونها ببخس المكيال والميزان، ﴿وزنوا بالقسطاس المستقيم﴾ أي: بالميزان العادل، الذي لا يميل، ﴿واتقوا الذي خلقكم والجبلة الأولين﴾ أي: الخليقة الأولين، فكما انفرد بخلقكم، وخلق من قبلكم من غير مشاركٍ له في ذلك، فأفردوه بالعبادة والتوحيد، وكما أنعم عليكم بالإيجاد والإمداد بالنعم، فقابلوه بشكره.

قالوا له، مكذبين له، رادِّين لقوله: ﴿إنما أنت من المسحرين﴾ فأنت تهذي وتتكلم كلام المسحور، الذي غايته أن لا يؤاخذ به.

﴿وما أنت إلا بشر مثلنا﴾ فليس فيك فضيلة اختصصت بها علينا، حتى تدعونا إلى اتباعك، وهذا مثل قول من قبلهم ومن بعدهم، ممن عارضوا الرسل بهذه الشبهة، التي لم يزالوا يدلون بها ويصولون، ويتفقون عليها، لاتفاقهم على الكفر، وتشابه قلوبهم.

وقد أجابت عنها الرسل بقولهم: ﴿إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده﴾.

﴿وإن نظنك لمن الكاذبين﴾ وهذا جراءة منهم وظلم وقول زور، قد انطووا على خلافه، فإنه ما من رسول من الرسل، واجه قومه ودعاهم، وجادلهم وجادلوه، إلا وقد أظهر الله على يديه من الآيات، ما به يتيقنون صدقه وأمانته، خصوصاً شعيباً عليه السلام، الذي يسمى خطيب الأنبياء، لحسن مراجعته قومه، ومجادلتهم بالتي هي أحسن، فإن قومه قد تيقنوا صدقه، وأن ما جاء به حق، ولكن إخبارهم عن ظن كذبه كذب منهم.

﴿فأسقط علينا كسفاً من السماء﴾ أي: قطع عذاب تستأصلنا. ﴿إن كنت من الصادقين﴾ كقول إخوانهم ﴿وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾ أو أنهم طلبوا بعض آيات الاقتراح، التي لا يلزم تتميم مطلوب من سألها.

﴿قال﴾ شعيب عليه السلام: ﴿ربي أعلم بما تعملون﴾ أي: نزول العذاب، ووقوع آيات الاقتراح، لست أنا الذي آتي بها وأنزلها بكم، وليس عليَّ إلا تبليغكم ونصحكم وقد فعلت، وإنما الذي يأتي بها ربِّي، العالم بأعمالكم وأحوالكم، الذي يجازيكم ويحاسبكم.

﴿فكذبوه﴾ أي: صار التكذيب لهم وصفاً، والكفر لهم ديدناً، بحيث لا تفيدهم الآيات، وليس بهم حيلة إلا نزول العذاب.

﴿فأخذهم عذاب يوم الظلة﴾ أظلتهم سحابة فاجتمعوا تحتها مستلذين، لظلها غير الظليل، فأحرقتهم بالعذاب، فظلوا تحتها خامدين، ولديارهم مفارقين، ولدار الشقاء والعذاب نازلين.

﴿إنه كان عذاب يوم عظيم﴾ لا كرة لهم إلى الدنيا، فيستأنفوا العمل، ولا يُفتَّر عنهم العذاب ساعة، ولا هم ينظرون.

﴿إن في ذلك لآية﴾ دالة على صدق شعيب، وصحة ما دعا إليه، وبطلان رد قومه عليه، ﴿وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ مع رؤيتهم الآيات، لأنهم لا زكاء فيهم، ولا خير لديهم ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾.

﴿وإن ربك لهو العزيز﴾ الذي امتنع بقوته عن إدراك أحد، وقهر كل مخلوق. ﴿الرحيم﴾ الذي الرحمة وصفه، ومن آثارها، جميع الخيرات في الدنيا والآخرة، من حين أوجد الله العالم إلى ما لا نهاية له. ومن عزته، أن أهلك أعداءه حين كذبوا رسله، ومن رحمته، أن نجّى أولياءه ومن اتبعهم من المؤمنين.

﴿١٩٢ ـ ٢٠٣﴾ ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين * نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين * بلسان عربي مبين * وإنه لفي زبر الأولين * أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل * ولو نزلناه على بعض الأعجمين * فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين * كذلك سلكناه في قلوب المجرمين * لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم * فيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون * فيقولوا هل نحن منظرون﴾ لما ذكر قصص الأنبياء مع أممهم، وكيف دعوهم، و [ما][1] ردوا عليهم به، وكيف أهلك الله أعداءهم، وصارت لهم العاقبة.

ذكر هذا الرسول الكريم، والنبي المصطفى العظيم، وما جاء به من الكتاب، الذي فيه هداية لأولي الألباب، فقال: ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين﴾ فالذي أنزله، فاطر الأرض والسماوات، المربِّي جميع العالم، العلوي والسفلي، وكما أنه رباهم بهدايتهم لمصالح دنياهم وأبدانهم، فإنه يربيهم أيضاً، بهدايتهم لمصالح دينهم وأخراهم، ومن أعظم ما رباهم به، إنزال هذا الكتاب الكريم، الذي

(١) زيادة يقتضيها السياق.